فلسطين في ثقافة وتاريخ البحرين

بدر عبد الملك

لقد أتاح لقاء الحج الموسمي في مكّة فرصاً للتدارس الديني والتبادل التجاري بين الشعوب الاسلامية والعربية. وكذلك حقّقت مثيلتها في رحلة الذهاب والاياب، صيفاً وشتاء، من الشام الى ربوع اليمن، مروراً بمكّة والمدينة. مثل هذا اللقاء، وهذا التقاطع الجغرافي الموقعي في حيويته لمكّة وغيرها من المدن الواقعة على طريق القوافل، حقّق فرصة الاحتكاك والتفاعل مع جنسيات وثقافات اثنية مختلفة ومتباينة، كان لها تأثيرها الواضح في التاريخ العربي القديم، والمعاصر. لذلك، كثيراً ما زارت، أو عرّجت على، جزيرة البحرين شخصيات معروفة، بسبب تواجدها في مكّة لاداء فريضة الحج، على الرغم من ان الوصول الى جزيرة البحرين، يومذاك، احتاج الى ارادة خاصة، والى أسباب ودوافع عميقة لاقناع اصحابها بالعروج عليها، او نتيجة اقتناعهم الذاتي بزيارة منطقة تقع في الجزء الاقصى من الشرق، وبعيداً من الاراضي المقدّسة، خلافاً لأهالي العراق وايران والجزيرة العربية، الذين كانت تربطهم بالجزيرة علاقات تاريخية، طويلة الأمد وذات طابع عائلي، وقبلي، ومذهبي. لذا، لم تعرف الجزيرة حركة هجرة لجنسيات عربية اخرى حتى العقد الاول من القرن العشرين، وخصوصاً من الفلسطينيين العرب، موضوع دراستنا. وكان لهذه العملية اسبابها التاريخية، والموضوعية أيضاً. فالى جانب ان منطقة الخليج كانت معزولة، ومغلقة، لعامل التخلّف والسيطرة الاستعمارية، كذلك لم تتوفّر فيها مقوّمات اقتصادية محدّدة تجتذب الآخرين الى الهجرة اليها، وبالذات وجود فرص العمل؛ ومن الجانب الآخر، كانت الظروف الداخلية لهذه البلدان مستقرة نوعاً ما، ولم تتدهور الى مستوى «المأساة» الّا في أواخر الاربعينات، حين أخذ يتنامى الصدام المباشر فيما بين العرب واليهود، وتبرز الى الوجود، تدريجياً، ظاهرة «اللاجئين الفلسطينيين». وخلال فترة الحربين العالميتين، الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، حدثت متغيّرات عديدة في منطقة الخليج، والمنطقة العربية عموماً. وقد أشبعت تلك المتغيّرات بالدراسات والتشخيصات، وهذا خارج نطاق موضوعنا، فيما عدا ظاهرة نمو الشعور القومي وزيادة تفاعل الحركة القومية المناهضة للاقطاع والاستعمار في الوطن العربي. وسيكون تركيزنا على علاقة البحرين بالانسان الفلسطيني، موضوع البحث، وعلاقة التحوّلات والتأثيرات المتبادلة فيما بين طرفي المعادلة، وقد تركّزت أهمها في ثلاثة محاور أساسية: أولاً، جوانب تأثير الانسان الفلسطيني، سياسياً وفكرياً وثقافياً في المجتمع البحراني؛ ثانياً، ردود فعل الحركة الشعبية البحرانية، وتيّاراتها، وثقافتها، وتفاعلها، مع القضية الفلسطينية؛ ثالثاً، لجم وكبح السلطات في البحرين التفاعل الفلسطيني ـ البحراني، وتحجيمه على النطاق الاعلامي، والجماهيري. هذه المحاور تتشابك وتتداخل احياناً في جوانب عديدة، كعلاقات سببية، بحيث من الصعب ترتيبها على أساس هيكليات شكلية متعارف عليها بحثياً.